الحديث العشرون

نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس

عن عبد الله بن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من النَّاس: الصِّحَّة، والفراغ» رواه البخاريُّ، وأحمد، والتِّرمذيُّ، وابن ماجه، والحاكم[1].

إنَّ الَّذي يُوَفَّق لشكر النِّعمة، واستعمالها فيما يرضي الله قليلٌ. أمَّا الكثير من النَّاس؛ فهم مغبونون في النِّعم؛ التي أكرمهم الله بها، ومن هذه النِّعم: الصِّحَّة والفراغ.

* إنَّ الصِّحَّة نعمةٌ عظمى، تتيح للمرء أن يسعد في الحياة، وأن يتنعَّم بما أحلّ الله له من الطَّيبات؛ لأنَّ المريض لا يجد اللَّذة في كلِّ مُتَع الحياة... فالماء العذب مرٌّ في فمه ينكره، ولا يُسِيغُه، ولو شربه إنسانٌ معافى؛ لوجده عذباً زُلالاً. كما قيل:

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيْضٍ ... يَجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلَالاَ

قال البوصيري:

قَدْ تُنْكِرِ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وينكر الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

والسَّعادة التَّامة، والهناءة الكاملة لا تكونان إلا بالصِّحَّة، ولا يمكن للمال أن يحلَّ محلّها، ولا أن يأتيَ بها إن غابت، بينما الصِّحَّة تأتي بالمال؛ إن كان

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٤١٢، والتِّرمذيُّ برقم ٢٣٠٤، وابن ماجه برقم ٤١٧٠، وأحمد ١/٢٥٨، والحاكم ٤/٣٠٦.

صاحبها موفقاً نشيطاً. وإنَّ الغنيَّ المريض يتمنَّىٰ لو يفتدي بمالِه كلِّه مِمَّا يعاني من المرض.

والمريض لا يقوىٰ على الاستكثار من النَّوافل، والقرُبات من صلاةٍ، وصيامٍ، وحجٍّ، وعمرةٍ، وإعانةٍ للضَّعيف، وإكرامٍ للضَّيف، وإغاثةٍ للملهوف، وأمرٍ بالمعروف، ونهيٍ عن المُنكر... وما إلى ذلك من صنوف الخير، والطَّاعة.

فالعاقل مَنْ يغتنم صحَّته، ويستعين بها في القيام بالواجبات، واجتناب المحرَّمات، والتزوُّد من الخير، وهذا هو الشُّكر الحقيقيُّ.

ومن لم يفعل ذلك كان مغبوناً، وماذا بعد الصحة إلا المرض، ولله در القائل:

أرىٰ بصري قد رابني بعد صحة وحَسْبُكَ داءً أن تصحَّ وتَسْلَما

إنَّ المرض ظاهرةٌ من ظواهر التخلُّف الَّتي يعاني منها المسلمون، ويشترك مع الجهل، والفقر، والسُّلوك الهابط في إضعاف الأمَّة، وهي أمورٌ قائمةٌ في كثيرٍ من ديارنا، وقد تحدَّث عن خطرها الكُتَّاب[1] منذ أكثر من خمسين سنةً. وإنَّه ليؤسفني أنْ أقرِّر: أنَّ هذه الآفات المُهلكة ما تزال تفتك بالأمَّة حتَّى الآن. ويأتي في رأس هذه الآفات المرض. والسَّعيد من عرف النِّعمة، وقدَّرها قدرها وهي موجودةٌ فقام بواجب شُكْرِها، أمَّا الَّذي لا يعرف النِّعمة إلا بعد زوالها؛ فهو إنسانٌ مخذولٌ، فاته وقت الشُّكر، وضاعت عليه النِّعمة، وقد قيل: الصِّحَّة تاجٌ على رؤوس الأصحَّاء لا يعرفه إلا المرضى.

والمرض قد يقضي على الموهبة، والإبداع، ويُضعِف الإنتاج الماديَّ من تجارةٍ، وصناعةٍ، وزراعةٍ، وقد يؤثِّر على الإنتاج الفكريِّ كمَّاً، ونوعاً.

والأمراض نوعان: جسميَّةٌ، ونفسيَّةٌ، وكلاهما يوهن صحَّة الفرد، وكيان الأمَّة.

---

(١) من أمثال الزَّيَّات في وحي الرِّسالة.

وإنَّه لَيحزُنني: أنَّ كثيراً من الأمراض الفتَّاكة ما تزال تستوطن في عددٍ من بلاد المسلمين، مع أنَّ الإسلام دعا إلى التَّداوي، والحذر من أسباب المرض. ونحن مدعوُّون إلى أن نحمَد الله على نعمة العافية، ونُفيدَ من الصِّحَّة حال وجودها، وإلى أن نعمل على نشر الوعي الَّذي يُفيدنا في معرفة قيمة الصِّحَّة والوقت.

إنَّ ذلك يدفعنا إلى محاربة الأمراض، وأسبابها من الفواحش، والجراثيم والمخدِّرات، والمسكرات، وما إلى ذلك، فالابتعاد عن الأسباب وقايةٌ، والوقاية خيرٌ من العلاج.

* والفراغ نعمةٌ عظمى؛ لأنَّ الشُّغل المستمرَّ يوهن الجسم، ويَحْجُبُ المرء عن مصادر الثَّقافة، ويحول بينه وبين ارتقاء الرُّوح، ويمنعه من التأمُّل في الكون، والحياة، وسنن الله في خلقه، ويَحرمُه الرَّاحة، والتمتُّع بمباهج الحياة وزينتها، ويَمْنَعُه من الاستكثار من الطَّاعات، والقُرُباتِ، ولا يمكِّنه من مساعدة الآخرين، فلا يُغيث ملهوفاً، ولا يَفعَل معروفاً، ولا يَنْصُر مستجيراً، ولا يدعو إلى الله، ولا يأمر بالمعروف، ولا يَنْهىٰ عن المنكر، بل لا يُمَكِّنه من بناء بيته على الأساس السَّليم؛ الَّذي يلتزم بمبادئ الإسلام العظيم، فلا يجد الوقت لتربية أولاده على ما يُريد. ومن هنا كان الفراغ نعمةً كبرىٰ لمن يكرمه الله به، فإذا وجد الفراغ؛ كان شكرُه أن يملأه بما يعود عليه وعلى أبناء أمَّته بالخير، والثَّواب.

والفراغ يَعْقُبُه الشُّغْل، كما أنَّ الصحة يَعْقُبُها المرض، ولو لم يأت المرض جاء الهرم، وهو سقمٌ، وضعفٌ دائمٌ. قال محمود الورَّاق:

وَبَادِرْ شَبَابَكَ أَنْ يَهْرَمَا ... وَصِحَّةَ جِسْمِكَ أَنْ يَسْقَمَا
وَأَيَّامَ عَيْشِكَ قَبْلَ الممَاتِ ... فَمَا دَهْرُ مَنْ عَاشَ أَنْ يَسْلَمَا
وَوَقْتَ فَرَاغِكَ بَادِرْ بِهِ ... لَيَالِيَ شُغْلِكَ فِي بَعْضِ مَا
وَقَدِّمْ فَكُلُّ امْرِئٍ قَادِمٌ ... عَلَىٰ بَعْضِ مَا كَانَ قَدْ قَدَّمَا[1]

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ١٠٢.

وَأنشدَ أحمدُ بن أيُّوب:

اغْتَنِمْ فِي الفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ ... فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مَوْتُك بَغْتَهْ
كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْت مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهْ[1]

وقال الشَّاعر:

يَسُرّ الفتى طُوْلُ السَّلَامَةِ والبَقَا ... فَكَيْفَ تَرَىٰ طُوْلَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ الفَتَىٰ بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصِحَّةٍ ... يَنُوءُ إِذَا رَامَ القِيَامَ وَيُحْمَلُ

* * *

المرء في سباقٍ مع الأجل وظروف الحياة الصَّعبة، والعمرُ يمرُّ سريعاً، ولذا فقد وردت نصوصٌ كثيرةٌ في الكتاب والسُّنَّة تأمر بالمُسارعة إلى الخير، والمُسابقة إلى الطَّاعة؛ لأنَّ الإنسان لا يشعر بنفسه إلا وقد وخطه الشَّيب، وتخطَّىٰ مرحلة الشَّباب، واقترب من نهاية رحلة الحياة.

قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١].

فالله سبحانه يأمرنا بالمسارعة إلى المغفرة، والجنَّة، والمسابقة إليهما قبل أن يُحالَ بيننا، وبينهما، ولا ينبغي أن تغرَّنا الحياةُ الدُّنيا، فقد جاء قبل هذه

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ١٠٦ وقال المحبي في خلاصة الأثر ١/ ٣٠٥: إنَّ أحمد بن أيوب عندما تكلَّم على ترجمة الإمام البخاريِّ أنشد له هذين البيتين، و أفاد: أنَّه ليس للبخاريِّ غيرهما. والله أعلم.

الآية قولُه سبحانه: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وعن ابن عباسٍ قال: قال ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابَك قبل هَرَمِك، وصحَّتك قبل سُقْمِك، وغناك قبل فَقْرِك، وفراغَك قبل شُغْلِك، وحياتَك قبل موتك». رواه الحاكم في «المستدرك»، والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان»، وهو حديث صحيحٌ(١).

وعن أبي هريرة، قال: قال ﷺ: «بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً مُنْسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هَرَماً مُفْنِداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدَّجال، فشرُّ غائبٍ ينتظر، أو السَّاعة، فالسَّاعة أدهىٰ وأمَرُّ». رواه التِّرمذيُّ. وفي سنده محرز، وهو واهٍ، ولكن معناه صحيحٌ رائعٌ، وتشهد له أدلَّةٌ كثيرةٌ ثابتةٌ(٢).

وقد حدَّثنا القرآن: أنَّ الخاسرين يوم القيامة يُدْعَوْن إلى السُّجود امتحاناً لإيمانهم، فلا يستطيعون؛ لأنَّ ظهورهم تصير طبقاً واحداً، كما جاء ذلك في حديثٍ في الصَّحيحين(٣)، وذكر: أنَّهم في الدُّنيا كانوا يُدعون إلى السجود وهم سالمون، فيأبون، فكان عاقبةَ أمرهم الذلُّ المهينُ، والعذابُ المقيمُ. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٢ ـ ٤٣].

إنَّ نِعَمَ الله لا تُحصىٰ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤ والنحل:

---

(١) المستدرك ٤/ ٣٠٦، وشعب الإيمان ١٨/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ برقم ٩٧٦٧ ـ ط الهند، بومباي الدَّار السَّلفيَّة ١٤١٦ هـ ١٩٩٦، وانظر صحيح الجامع الصَّغير ١٠٧٧، وقال: صحيح.

(٢) انظر كتابنا «الحديث النَّبوي» ص ٦٩ الطبعة الثامنة ـ المكتب الإسلامي.

(٣) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشِف ربُّنا عن ساقه، فيسجد له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقىٰ مَنْ كان يسجد في الدُّنيا رياءً، وسمعةً، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً» انظر البخاريَّ برقم ٤٩١٩، ورواه مسلمٌ برقم ١٨٣ في حديث طويلٍ.

١٨] ومن أجلِّها الإيمان ، وقد ذكر رسول الله ﷺ هاهنا هاتين النِّعمتين ؛ لأنَّ المرء بهما يقوم بالواجبات ، والمستحبَّات ، وذلك يعود نفعه عليه ، وعلى مجتمعه في الدُّنيا والآخرة .

فإذا اجتمعت الصِّحَّة ، والفراغ لدىٰ المسلم صاحبِ الهمَّة الَّذي يقدِّر هاتين النِّعمتين حقَّ قدرهما ، استطاع أن يؤدِّي شكرَهما ، وأن يبلغ رضوان الله .

إنَّ الصِّحَّة وحدها لا تكفي لإنجاز أعمال الخير ، وفعل القُرُبات ؛ إن كان الإنسان مشغولاً بأعمالٍ أخرىٰ ، والصِّحَّة هي الَّتي تُمَكِّن صاحبها من العمل ، والفراغ هو الَّذي يوفر الظَّرف الزَّمانيَّ ؛ الَّذي يَتِمُّ العمل فيه .

كثيرٌ من المسلمين في العالم الإسلاميِّ اليوم يبدِّدون أوقاتهم ، ويضيِّعونها فيما لا طائل تحته ، تراهم يتسكَّعون في الطُّرقات ، ويجلسون في القهوات ، ويتحلَّقون حول أجهزة التِّلفزيون ، والمذياع ، ويلعبون الورق ، وقد يقامرون ، ويعبثون . وغيرهم في جدٍّ دؤوبٍ ، واستفادةٍ من الوقت والصِّحَّة . فكيف لا يكونون مغبونين؟!

في الحديث صورةٌ بيانيَّة منتزعةٌ من البيئة التِّجارية . . . كلُّ تاجرٍ له رأس مالٍ ، والتَّاجر المفلح هو الذي يحافظ على رأس ماله ، ويبتغي الرِّبح من تجارته ، فإنْ حافظ على رأس ماله ، واستطاع أن يكسب الرِّبح المُجزِئ ؛ كان موفَّقاً في تجارته ، وإنْ أضاع رأس مالِه ، وخسر ؛ كان مغبوناً .

والصِّحَّة ، والفراغ رأسُ مال المسلم ، وينبغي أن يُعنَىٰ المسلم الموفَّق برأس المالِ ، ويحافظ عليه ، ويوظِّفه فيما يعود عليه بالرِّبح الوفير .

وابتغاؤه الرِّبح يقتضيه أن يستفيد من صحَّته ، وفراغه ، فيؤدِّي الواجبات ، ويجتنب المحرَّمات ، ويستكثر من القُرُبات .

فمن فعل ذلك ؛ حافظ على رأس المال ، وحصل على الرِّبح الكثير ، وكان موفَّقاً في تجارته ؛ الَّتي يظهر ربحها في الآخرة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] فَسُرَّ ، وفاز بالنَّعيم الأبديِّ في الجنَّة .

ومن غلب عليه الكسل فلم يعمل الصَّالحات ، واستعان بصحَّته على

معصية الله ، وشغل فراغه باقتراف المحرَّمات ، وانقاد إلى الهوىٰ المهلك ، والنَّفس الأمَّارة بالسُّوء ، والشَّيطان الغرور ؛ أضاع رأس المال ، وخسر الخسارة العُظمى ، وهناك يدعو ثبوراً ، ويُسْحَب على وجهه في النَّار ، وإنَّه لمغبونٌ حقَّاً ، فالمغبون من باع بضاعته بثمنٍ بخسٍ يقلُّ عن رأس المال ، فكيف بِمَنْ أضاع رأسَ المَالِ كلَّه؟

* * *

obeikandl.com